لمحة حول القلعة القديمة لموقع قصير عثمان

الأستاذ/ محمد فوزي معلم

قسم التاريخ وعلم الآثار

جامعة 08 ماي 1945 – قالمة–

الملخّص:

يعتبر موقع قصير عثمان من أهم المواقع الأثرية التي تزخر بها ولاية قالمة، أين كان من النقاط الدفاعية المهمة المتمركزة في القسم الجنوبي لسلسة جبال ماونة، فالموقع بخصائصه الجغرافية والطبوغرافية استطاع أن يمزج بين العمران المدني والعسكري، هذا الأخير تمثل في قلعة متمركزة فوق هضبة شديدة الإنحدار تطل على واد السبت من الضفة اليمنى، أين تمت الإشارة لها لأول مرة سنة 1867 من طرف الجنرال شارل دو فينيرال.

تزخر منطقة قالمة كغيرها من مناطق شمال افريقيا بعدد معتبر من المخلفات الأثرية القديمة، هذه الأخيرة اختلفت بين بعضها البعض من حيث الوظيفة التي كانت تخضع بدورها إلى طبوغرافية المكان المهيأة عليه. فالمنشآت الفلاحية على سبيل المثال كانت احتلت عموما المناطق السهلية والمسطحة والمنفتحة في نفس الوقت على الشبكة الهيدروغرافية والمواصلات. عكس المنشآت الدفاعية التي كانت تعتمد خاصة على المناطق المرتفعة أو تلك المحصنة طبيعيا. ولكون أن الرومان قاموا بعملية استعمار واستيطان في شمال افريقيا، تطلب منهم ذلك القيام بوضع استراتيجية عسكرية من خلال وضعهم لأعداد معتبرة من المنشآت الدفاعية بغرض تطويق السكان المحليين المعادين للنظام الروماني في المناطق الجبلية حفاظا على أمن وسلامة العناصر الرومانية أو المحلية الموالية للرومان. وفي نفس الوقت من أجل ضمان سيرورة تطور الإقتصاد الروماني.

فقلعة موقع قصير عثمان كانت من بين النقاط المهمة التي اعتمد عليها الرومان في هذا الصدد، وذلك بالنظر إلى موقعها الطبوغرافي والإستراتيجي ومحاذاتها في نفس الوقت لإحدى الطرق الرئيسية القديمة في المنطقة، و يتعلق الأمر بالطريق الرابط بين تيبيليس (سلاوة عنونة) و قلعة سيدي يحي عبر مجاز بن عقوب ، فهذا الطريق يمر عبر الفج الفاصل بين جبل عنونة و جبل كرباسة، ليأخذ مسار جنوب –غرب نحو برج بن زرقين، ليعبر بعدها سفح كاف معروف التي تحمي قمته بواسطة حصين، ليصل إلى موقع عين مدرق ثم هنشير زيدان.[1] ومن هنا يقطع واد بوداب من خلال جسر و الذي ليس من المستبعد أنه في نفس مكان جسر الفترة الفرنسية، ليجتاز بعدها كاف أم الشطاب[2] وبعد اجتيازه لواد بوالفرايس على مستوى نقطة انحنائه باتباعه لمنحنيات التسوية وطبوغرافية سهلة ، فإنه يتابع مساره نحو الجنوب ليمر بجانب موقع عيون الجمل ليقطع بعدها شعبة كاف البط، و على بعد حوالي 800 متر نحو الجنوب دائما يتفرع الطريق مرة أخرى ليتجه نحو الشرق ليقطع واد الشارف عبر مجاز بن عقوب من خلال جسر[3]، ليأخذ بعدها مسارا شرقيا ليلتحق بالطريق الآتية من قصير عثمان والمتوجهة نحو الجنوب، عند مخرج الخانق الجبلي بين مزارتي بليل وبودبوز، ومن هنا يتجه شمالا باتجاه برج القايد بن مراد ليقطع بعدها واد السبت ليلتحق بقصير عثمان ، ثم برج سي علي شريف ليلتصق بالطريق الآتية من قالمة عبر قسميها الغربي و الشرقي وصولا إلى مفترق الطرق لجامع محروف. ومن هنا يأخذ مسارا شرقيا مجتازا بذلك عين بئر يوسف و واد الحطابة عبر

1 - **GSELL (Stph),** Atlas Archéologique de l'Algérie. F° 18 N°115 - 116.

2 - **MERCIER (C.)**, Note sur les ruines et les voies antiques de l'Algérie, B.C.T.H, 1888, p.112.

3 - **GSELL (Stph),** Op. Cit F° 18 N° 194..

كاف الطير والكاف الأحمر من الجهة الشرقية (1/50 000) و ليست الشمالية كما وردت عند مارسيي، ليصل بعد ذلك إلى الهضاب المتموجة بواسطة المجاري المائية الواقعة شمال جبل باردو.[1] ليلتصق مرة أخرى بالطريق الرابط بن هيبون و تيبازة عبر كاف بزيون ليصل أخيرا إلى قلعة سيدي يحي.

موقع قصير عثمان وحسب بارنال هو المكان المسمى بكابراريا Capraria الوارد في طاولة بوتينجير، و ذلك بالنظر إلى المسافة الفاصلة بينها وبين تيبيليس، و كذلك وضعيتها العسكرية و طبيعة المنطقة ككل،[2] إذ أن المسافة حسب مارسي قدرت بـــ: 14 ميل (20 كلم)، و لكن هذا الأخير يضعها في موقع مجاز بن عقوب[3] الواقع على بعد حوالي 4 جنوب غرب قصير عثمان. ولكنها تبقى نظرية غير مؤكدة بالنسبة لغزال.[4]

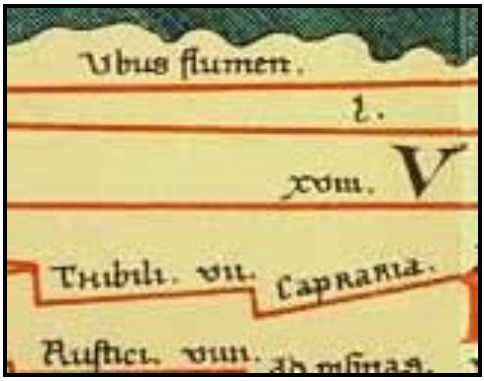

جانب من طاولة بوتنجير يظهر عليه اسم واد سيبوس (Ubus Flumen) وسلاوة عنونة (Thibilis) وربما قصير عثمان؟ (Capraria ?)

1 - **MERCIER (C.),** op.cit. p 114.
2 - **BERNELLE(R),** Vestiges Antiques de la commune mixte de l'oued Cherf . R.S.A.C – VOL XXVII- 1892p 61.
3 - **MERCIER (C.),** op.cit.. p 113-114.
4 - **GSELL (Stph.),** Op.cit.F°18 N°193-194.

إذا فالمنشأة التحصينية لموقع قصير عثمان تقع على بعد حوالي 2000 متر جنوب–جنوب شرق هنشير مشتة المكيمن أو هنشير مغوط و1600 متر غرب برج سي علي الشريف في المكان المسمى حاليا بمشتة جغوط، وهي على ارتفاع 855 متر على مستوى سطح البحر (1/50.000) (google earth). تتمثل حسب غزال في ملجأ محصن متمركز فوق الهضبة شديدة الإنحدار التي تشرف على واد السبت من الضفة اليمنى.[1] هذه الأخيرة ذات قمة صخرية بطول قدر بحوالي 150 متر أما العرض فهو متغير بين 15 و30 متر.[2] ارتفاع الهضبة من الناحية الجنوبية؛ أي من الجهة المطلة على واد السبت تراوح بين 100 و 125 مترا ، و ما بين 50 إلى 80 مترا من الناحية الغربية ، أما الجهة الشمالية فهي عبارة عن منحدرات جد شديدة بمعدل 15 إلى 30 مترا. و أخيرا الجهة الشرقية، فهي مرتبطة بمضيق محصور مع الربوة المجاورة[3]. مع العلم أن المنفذ الوحيد القلعة يبقى من هذه الأخيرة، كون أنه يتميز بطبوغرافية جد صعبة و محصنة طبيعيا من باقي الجهات.

الجهة الشمالية من القلعة مازالت واضحة في عدة أقسام من خلال بروز خمسة مداميك أو أسس من الحجارة الضخمة متراصة و من دون ملاط[4] وحسب "غزال" فإن القلعة في حالة سيئة من الحفظ، و بالرغم من ذلك فبالإمكان التعرف عليها بسهولة. (أنظر المخطط–1–). فهي محصنة من الجهة الشمالية بحائط أو جدار متواصل مع حائط طبيعي ، حيث يبلغ سمكه ما بين

---

1 - Ibid, N°193.

2 -VIGNERAL (Ch.) De, Ruines Romaines de l'Algérie, subdivision de Bône ,Cercle de Guelma.. p 29.

3 - Ibid. p. 29.; **GSELL (Stph.),** note sur quelques Forteresses Antiques du département de Constantine. R.S.A.C VOL XXXII -1898,.p 252. **;DIEHL (Ch.),** L'Afrique Byzantine, Histoire de la domination byzantine en Afrique (533-709), p.611.

4 - BERNELLE(R.), op.cit.,p 62.

1,40 م و 1,60 م ، علما بأنه من النوع المزدوج الذي تتوسطه حجارة دبشية.

الجهة الشرقية فهي حسب شارل ديهال Charles DIEHL ذات نظام دفاعي معقد، ، تتمثل في حائط بمعدل سمك 1,50م مدعم في قسمه الشمالي بوسطة برج (**A**) يقدر ارتفاعه بـــ :5 أمتار، ومن الجانب الآخر ؛أي الجنوبي فهو محصن ببرج أكثر إتساعا (**C**) . هذا الأخير يمتد على قسم أو جزء من الجهة الجنوبية بواسطة جدار (**D**) الذي لم يبق منه في الوقت الحالي إلا بعض البقايا.

المدخل الرئيسي للقلعة هيأ من الجهة السهلة من وجهة نظر الطبوغرافيا؛ أي في القسم الشرقي، و تحديدا وسط جدار هذه الجهة، أين رجّح وجود مدخل القلعة و هذا من خلال العثور على ساكف باب كبير في عين المكان. حيث أنه محصن بواسطة برج مربع الشكل (**B**) بمقاسات 4.20 مترا من كل جهة.

الأسوار الداخلية هي مزدوجة بدورها ، ذات سمك قدر بحوالي 1 متر. واحد من هذه الأخيرة يخرج من السور الشمالي ليأخذ مسارا جنوبيا شرقيا على مسافة قدرت بحوالي 30 مترا لينتهي ببرج آخر كبير مربع الشكل (**E**) بمقاسات 7 متر من كل جانب. هذا الأخير اعتبرناه كنظام تحصيني ثاني ولكن داخل أسوار القلعة.

سور آخر مازالت بقاياه تظهر بشكل واضح، يخرج هو الآخر من السور الشمالي ليأخذ مسارا جنوبيا (**F**) ينتهي عند البرج المشرف على المنحدرات الجنوبية المطلة على واد السبت (أنظر المخطط -1-)، هذا السور يتميز بكبر سمكه، كما أنه يشكل زاوية قائمة تقريبا مع السور الشمالي. فالبناء هنا رديء

ويظهر بأنه لا يحتوي على ملاط ، أما الحجارة فهي مصقولة وكبيرة وقليلا ما كانت مربعة ، على عكس الأبراج التي يظهر فيها نوع من الإتقان.

من الجهة الشمالية الغربية و على بعد حوالي 20 مترا من الجهة السفلى للقلعة و فوق المنبع يوجد خزان (**G**) لم نتمكن من رؤية سوى جزء منه فقط[1]. أما بارنال يؤكد وجود خزانات أخرى و ليس خزانا واحدا فقط ، و أن المياه كانت تصل إليها عن طريق قنوات تحتية من خلال منبع يقع في الجهة العلوية والذي يؤمن التزويد بالمياه الصالحة للشرب للأشخاص الموجودين داخل هذا الحصن أو الحامية العسكرية.[2]

الخزان (G) هو من المخلفات التي مازالت في حالة جيدة في الوقت الحالي، إلا أنه لا يقع خارج أسوار القلعة كما هو وارد في المخطط (أنظر صورة –8–)، فهذا من غير البديهي بطبيعة الحال، فالخزان يقع مباشرة بمحاذاة السور الشمالي الخارجي و لكن من الجهة الداخلية. فهو لا يظهر للوهلة الأولى، كونه مهيأ تحت سطح الأرض، ولا يمكن الولوج إليه إلا من خلال فتحة صغيرة على السطح وبعد الدخول عبر هذه الأخيرة للكشف عنه، ظهر لنا بأنه عبارة عن صهريج متكون على الأقل من غرفتين يمكن الولوج إلى الثانية عن طريق فتحة أخرى منحنية تتمركز في القسم السفلي؛ بمعنى أن غرفتي الخزان إن كانتا إثنين كما افترضنا فهما تمتلآن في نفس الوقت بواسطة قناة صغيرة متمركزة في القسم الشرقي لسقف الخزان إعتمادا على مياه الأمطار والثلوج. هذا الأخير يأخذ شكلا منحنيا شأنه شأن جميع الخزانات. و بحديثنا سابقا عن حالة حفظه

1- GSELL (Stph.), op.cit.p 253-254, GSELL (Stph), les monuments Antique de l'Algérie TOME II. p 393-394., DIEHL (Ch.), op.cit., p.611.

2 - BERNELLE(R.), op.cit.p 61.

الجيدة، فإن جدرانه مازالت هي الأخرى مغطاة بالملاط المائي الذي يصل سمكه إلى حوالي 7سم.

فبعد الدراسة النظرية للقلعة و المتبوعة بالدراسة الميدانية، اتضح لنا من الوهلة الأول بأن العناصر التي تحدث عنها عديد الباحثين في القرنين الماضيين لم يبق لها أي أثر سوى بعض الحجارة المتراكمة هنا و هناك، و بعد قيامنا بعملية مسح عبر أرجاء الموقع، تبين لنا بأن السور (**F**) المبين في مخطط "غزال" مازال يظهر بشكل جيد، أما البرج الواقع عند انتهاء هذا الأخير مع الخزان الواقع تحت تحته مباشرة لم يتم التطرق له نهائيا بالرغم من أنه واضح في الوقت الحالي، مع العلم أن الخزان مازال في حالة حسنة من الحفظ ، حيث يأخذ الشكل المربع بمقاسات 1,30 م من كل جانب و 1 م عمق (مع الردم). و من أجل عملية بنائه فإننا نلاحظ بأنه تم الإعتماد على الحجارة الدبشية خاصة من الجهة الشمالية ، و حجارة مصقولة متوسطة الحجم من الجهة الشرقية، أما الجهة الغربية فقد تم استغلال إحدى الجلاميد الطبيعية كقاعدة سفلى لهذه الجهة ثم الإعتماد على الحجارة الدبشية في القسم العلوي ، في حين أن الجهة الجنوبية لم تظهر لنا بسبب تراكم الأتربة عليها. وعموما فالجهات الأربعة للخزان مازالت تحتوي على نسبة كبيرة من الملاط المائي خاصة في الأجزاء السفلى، عكس الأجزاء العلوية التي مستها التعرية. سطوح الحجارة الجانبية أمام البرج بقيت بارزة، فهو مبني بحجارة مصقولة كبيرة تراوحت مقاساتها ما بين 0,55 م و1,4 م طولا و بين 0,50 م و 0,60 م عرضا و ما بين0,30 م و 0,50م سمكا، وهو أيضا مربع الشكل مثل البرج الذي يعلوه مباشرة، إلا أنه أكبر منه قليلا، حيث قدرت أبعاده من الجهة الداخلية بـــ: 2 م من كل جانب . أما سوره فهو مدعم بصفين من الحجارة، حيث قدر سمكه ب:ـــ0,9 م . حجارة البرج مع الخزان بدأت تتحرك من مكانها في الوقت الحالي بسبب دفعها من

طرف جذور شجرة الدردار الكبيرة المحاذية لهما من الجهة الغربية و التي من المؤكد أن تكون السبب الرئيسي في تدهور حالة حفظهما مع مرور الوقت.[1]

من الناحية الشمالية للبرج يخرج سورين بحجارة مصقولة مزدوجة بمعدل سمك 1 م، أحدهما يتجه نحو الشرق ليختفي على مسافة 4 أمتار و الثاني نحو الشمال لينتهي عند المنحدر(نفس السور (F) و لكن ليس كما هو وارد في مخطط غزال، ونفس الملاحظة بالنسبة للسور الشرقي) . و على بعد حوالي 3 أمتار من هذا الأخير و بدءا من الخزان الجنوبي، يخرج سور آخر ليتجه نحو الغرب كما هو مبين في مخطط غزال.

إذا فهذه المنشأة العسكرية استخدمت من دون شك لحماية المجمع السكني الواقع على بعد عشرات الأمتار نحو الشمال، و في نفس الوقت كان مركز لحماية و لجوء مختلف الريفيين القاطنين في الضواحي في حالة وجود خطر، كما يمكن إعتبار هذا المركز العسكري بمثابة إحدى النقاط الدفاعية المتقدمة من أجل حماية المراكز الرومانية الكبيرة الواقعة من الناحية الجنوبية و هذا خوفا من هجمات السكان المحليين القاطنين بجبال ماونة.

تأريخ الموقع يرجع على الأرجح إلى فترة قديمة (نوميدو- رومانية)، و ذلك بالنظر إلى موقعه الإستراتيجي الذي يفصل جبال ماونة التي كانت آهلة بالسكان المحليين الرافضين للنظام الروماني بالمناطق الجنوبية المسطحة نوعا ما والتي كانت آهلة هي الأخرى بالعنصر المحلي المُتَرَوْمِنْ مع نسبة من الرومان. أين اعتبرناه أيضا من بين النقاط الدفاعية المتقدمة التي كانت تضمن سلامة و أمن سكان السفوح الجنوبية لماونة كقلعة بوعطفان و هنشير الحمام.

1- **معلم (م.ف.)**، الخريطة الأثرية لبلديتي عين العربي و عين مخلوف، ص.ص.11-12.

شارل ديهال يصنف القلعة ضمن المنشآت الدفاعية البيزنطية في كتابه « افريقيا البيزنطية»؛ فهذه النظرية نستبعدها في ظل غياب الشواهد المادية المقنعة والدالة على تأريخها بهذه الفترة. فبالرغم من وجود حجارة دخيلة عن القلعة كمثبت لمعصرة زيتون مثلا، الذي تم توظيفه في بناء السور المتجه نحو الغرب والمشكل لزاوية قائمة مع السور (F). بالإضافة إلى عدم استعمال الملاط لتثبيت حجارة مختلف الأسوار، فهذا ليس معناه أن القلعة تعود بالضرورة إلى الفترة البيزنطية.

وحسب رأيي فإن القلعة لم تكن على النحو الذي وردت به في مخطط غزال، بل كانت بأبعاد أقل من ذلك في الفترات الأولى من بنائها و التي ترجع ربما بدايات الهيمنة الرومانية في المنطقة وهذا ما تثبته أيضا الأعداد الهائلة من الفخار المحلي المنتشر عبر أنحاء الموقع. مع مرور الوقت و ربما في فترة رومانية متأخرة اشتد الصراع بين السكان المحليين و الرومان، مما اضطروا إلى توسيع القلعة أو الملجأ من أجل استقبال أكبر عدد من السكان القاطنين في نفس الموقع أو الجهات المجاورة، ولهذا السبب كانت الحجارة المستعملة غير متناسقة في بعض الأجزاء بالإضافة إلى عدم احتوائها على الملاط، وهذا راجع إلى العجلة وضيق الوقت.

قائمة المراجع:

– **معلم** (**م.ف.**)، الخريطة الأثرية لبلديتي عين العربي و عين مخلوف، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في الآثار القديمة. معهد الآثار، جامعة الجزائر 2008.

- **BERNELLE(R.),** Vestiges Antiques de la commune mixte de l'oued Cherf, R.S.A.C., Vol. XXVII, 1892.
- **DIEHL (Ch.),** L'Afrique Byzantine, Histoire de la domination byzantine en Afrique (533-709). Volume I, Paris 1896.
- **GSELL (Stph.),** note sur quelques Forteresses Antiques XXXII - du département de Constantine. R.S.A.C VOL 1898.
- **GSELL (Stph.),** les monuments Antiques de l'Algérie- TOME I. Ancienne librairie Thorin et fils, Paris 1901.
- **GSELL (Stph.)**, Atlas Archéologique de l'Algérie, Tome 1 (texte) 2ème édition, Alger 1997.
- **MERCIER (C.),** Note sur les ruines et les voies antiques de l'Algérie, B.C.T.H.,1888. p.p. 101-125.
- **VIGNERAL (Ch.)DE,** Ruines Romaines de l'Algérie, subdivision de Bône ,Cercle de Guelma. Edition J. CLAYE, Paris 1867.

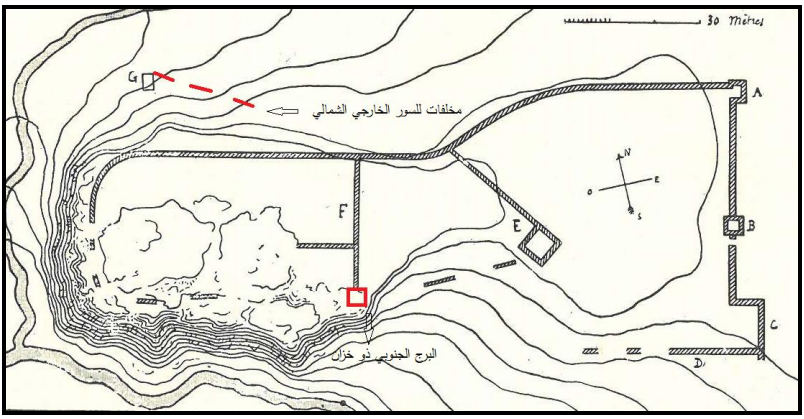

مخطط –1–: البقايا الأثرية لقلعة هنشير قصير عثمان

عن" **ستيفان قزال**" (R.S.A.C . 1898) (بتصرف الباحث)

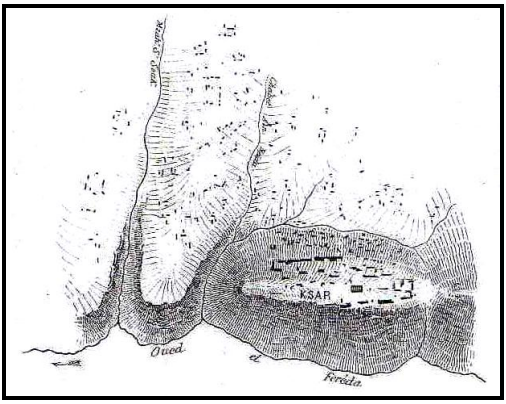

مخطط–2–: مخطط يبين البقايا الأثرية لهنشير قصير عثمان

عن "**شارل دو فينيرال**" (الآثار الرومانية لدائرة قالمة)

صورة –1–: منظر عام للقلعة من الجهة الشمالية

صورة –2–: منظر عام للقلعة من الجهة الجنوبية

صورة–3–: منظر عام للقلعة من الجهة الشرقية

صورة –4–: التحصين الطبيعي للموقع من الجهة الغربية

صورة –5–: منظر خارجي للخزان و البرج

صورة –6–: منظر داخلي للخزان و البرج

صورة –7–: بقايا السور التحصيني (F)

صورة–8– : منظر خارجي للخزان (G) مع بقايا السور الخارجي للقلعة

صورة –9– : منظر داخلي للخزان (G)

صورة –10– : القناة الممونة للخزان (G)

صورة –11–: مثبت لمعصرة الزيتون داخل أسوار القلعة

صورة –12–: بقايا عتبة باب داخل أسوار القلعة